عبد الوهاب البياتي

شاعر الفقر والثورة

كتب يقول فى (تجربتي الشعرية):

ـ لقد غمرت الرؤية المتمردة كل المواضيع الشعرية التى كتبت فيها.. فالموت المجاني الذى يضرب ضحيته دونما سبب مفهوم.. ذلك الموت الذى كان أشد بروزا فى ديواني (أباريق مهشمة) كان لابد من فهمه وكان فهمه هو التمرد عليه.. وفى (المجد للأطفال والزيتون).. و(أشعار فى المنفى).. كان هناك الموت من أجل الحرية.. أما الموت بالمجان فلم تعد له قيمة قط..

مهموم إذن بالوجود والعدم هذا الشاعر الذى ظل طوال حياته مدافعاً عن الإنسان فى تحولاته المختلفة.. وهذه التحولات لابد أن تنبع من دوره البطولي فى الحياة.

لقد ولد الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتى عام فى 1926 بمنطقة باب الشيخ ببغداد.. وتعلم فى مدرسة باب الشيخ الابتدائية ثم فى ثانوية الرصافة والإعدادية المركزية.

ويلتحق بدار المعلمين العالية عام 1944 ويكتشف حقيقة المدينة ـ بغداد ـ ثم تفتحت أمامه أبواب الثقافة على اتساعها.. وعرف تولستوى وتشيخوف وديستويفسكى.. وعدداً من كتاب الغرب مثل بيرون وشيلى وبودلير وكيتس ورامبو وفيكتور هوجو.

ومن خلال صحبة البياتي مع السياب وبلند الحيدري.. بدأت تتبلور عنده مهمة الشاعر والأديب.. وهو البحث عن قيم الأدب والفن والحياة.

لقد كان مهموماً بالبسطاء والفقراء.. وتغيير الواقع الاجتماعى.. فكانت الثورة قاسماً فى كل شعره.. ومن ثم فهو دائم البحث عن مفهوم البطل الأسطورى.. فى مجالات الحياة المختلفة.. وهذا البطل النموذج يحمل فى قلبه التمرد لأنه عانى محنة الوجود الحقيقية..

وهكذا جاءت تجربته الشعرية ملتحمة بالواقع.. وبالتأمل العميق.. وقد أصدر البياتى عدد كبير من الأعمال الشعرية بدأها عام 1950 بديوانه (ملائكة وشياطين) ثم تتوالى دواوينه: أباريق مهشمة (1954).. والذى على أثره فصل من وظيفته مدرساً.. ليبدأ رحلته الطويلة من الغربة والنفى.. فانتقل إلى دمشق.. ثم مصر عام 1956.. ثم دمشق مرة أخرى ومنها إلى فيينا وموسكو ليعود إلى بغداد عام 1958 عندما قامت الثورة فى العراقي.. فكتب (رسالة إلى ناظم حكمت) و(المجد للأطفال والزيتون) و(أشعار فى المنفى).

ثم يرحل البياتي مرة أخرى إلى موسكو (1959ـ1964).. ويصدر ديوانه (النار والكلمات) و(محاكمة فى نيسابور) وهى مسرحية شعرية ثم (سفر الفقر والثورة).

ويعود إلى القاهرة (1964ـ1971) وتتوطد علاقته بالثقافة المصرية ومثقفيها.

ويظل البياتى متنقلا بين القاهرة وموسكو وأسبانيا.. وبعض البلاد العربية حتى رحل عن الحياة فى عام 1999 ولسان حاله يقول:

بحثت من حان إلى حان

ومن منفى إلى منفى

عن الوجه الذى يحمله

سارق نار الشعر

عن معابد الآلهة الإنسان

عن أميرة المنفى

التى كنا وراء شعرها الأحمر

فى مدينة الطفولة

رحلت: قال: فمن سيحرس الأنهار

فى عرس نهار الموت

وحينما نطوف مع البياتى فى رحلته الطويلة فنحن أمام (مسافر بلا حقائب) حيث لا يضع لنفسه خرائط السفر.. فربما خرج وعاد فى الوقت نفسه وربما خرج بلا عودة.. ويعبر عن ذلك بقوله:

من لا مكان

لا وجه لا تاريخ لي.. من لا مكان

مستنقع التاريخ والأرض الحزينة

والرجال..

عبر التلال

وأنا وآلاف السنين

متثائب ضجرٌ.. حزين

من لا مكان

تحت السماء

وأسير لا ألوى على شئ

وآلاف السنين

لا شئ ينتظر المسافر غير حاضره الحزين

لكن رحلته تلك كانت رحلة مقيدة.. فلا يمر فى مكان إلا بعد أن يتلقى ألف سؤال عن موطنه ووجهته.. وحتى إذا سمح له سرعان ما يشعر أنه دخل سجناً مراقباً فى كل حين.. يقول فى قصيدته (السجن المجهول):

عبر باب السجن عبر الظلمات

كوخنا يلمع فى السهل.. وموتى.. والنجوم

وقبور القرية البيضاء.. والسور القديم

وقيودى وهواها

وطواحين الهواء

وبطاقات البريد

يا رفاقى فى الطريق

عبر باب السجن غنوا.. يا رفاق

لم يزل عالمنا يحفل بالخير.. وبالحب العميق

ترى أى غناء يمكن أن يطلقه المحكوم عليه بالسجن أو النفى وهو يقف على باب هذا التيه.. أهو أنين القلب.. أم فرح المقتحم.. أم نزوة العابث.

إنه الصمود.. هذا المعنى الذى يحمل الصبر والتحمل والمغـامرة جميعـاً ولهذا يصرخ البياتي فى قصيدته (المجد للأطفال والزيتون) قائلا:

المجد للشهداء والأحياء من شعبي

وللمتمزقين الصامدين

المجد للأطفال فى ليل العذاب

وفى الخيام

المجد للزيتون فى أرض السلام

وللعصافير الصغيرة وهى تبحث فى تراب

حقلى.. وللجيش المرابط فى حدود

وطنى الكبير

ـ جيش العروبة والخلاص ـ

المجد للشعراء والكتاب أحباب الحياة

الخائضين اليوم معركة المصير

والضاربين يد الطغاة

تلك إذن الفئات الصامدة التى تكتب التاريخ بنضالها وآمالها ودمائها..

هو إذن يرفض الفئات الأخرى المستكينة التى تلهو فى الحياة دون أن تتذوق طعم النضال من أجل عيشة كريمة.. يرفض الشعراء المنافقين.. والكتاب المرائين.. والمستسلمين للطغاة والحكام الفاسدين.

ولقد كان البياتي فى طليعة المنفيين من أجل الحرية.. لكنه كان دائما يواجه بنموذج (المخبر) أو (الجاسوس) أو (المنافق) للسلطة.. وكل هؤلاء يراهم فى صورة كاريكاتورية طريفة يقول فيها:

السيد البرميل

قفاه بطنه.. وبطنه قفاه

ذرب اللسان

يحفظ شعر المتنبي

ويقول الشعر أحيانا بلا أوزان

لكنه يخطئ فى الإملاء والإعراب

يعيد ما يقوله.. أو قاله الإمام

فى خطبة الجمعة أو فى مأتم يقام

يتقن فن الكذْب والتزوير فى الأحكام

يركب كل موجة

لكنه يسقط قبل كل شاطئ الأمان

ويظل البياتي بريشته يرسم ملامح هذا (المخبر) وسلوكه وعلاقاته بالغير.. وبأسياده الطغاة.. حتى ينهى قصيدته هكذا:

وينتهى كما انتهى اللصوص والشطار

عبدا إلى أسياده

وخادما للبيع والإيجار

ولا ينسى البياتي فى متاهة نفيه وتشرده هذا الوطن الذى عاش فيه سنوات عمره الأولى وشبابه.. فيغنى له:

بغداد برحّنا الهوى

لكن حراس الحدود

يقفون بالمرصاد

حراس الحدود

يا من أغنيها فتسألنى لماذا لا أعود؟

لم تسألينى.. والليالى السود دونك والسدود

ثم يكمل صورته فى قصيدة أخرى (القتلة) فيقول:

ها أنت.. هذا أنا

ماذا سيجدى السنا؟

من بعد أن سمموا

فى حقدهم خبزنا

بحيرة من دمٍ

تفصل ما بيننا

وليلهم ليلنا

يخنق إصباحنا

وكلبهم فى المدى

ينبح أمواتنا

حبيبتى أحرقوا

بالأمس أشعارنا

حبيبتى شوهوا

بالصمت تاريخنا

حبيبتى موتوا

بالسل أطفالنا

لا شمس.. لا نسمة

تطرق أبوابنا

تلك هى الأسباب الواقعية التى جعلت البياتي لا يطيق الاستسلام داخل وطنه الصغير.. ويظل يحاسب على خطواته وكلماته وأشعاره.. ويظل مهددا فى أسرته وأطفاله.. فليكن النفي هو الخلاص له من كل هذه الآلام.. ويرفع شعار الكلمة فى شموخ فى قصيدته (كلمات لا تموت) فيقول:

كلماتى لن تهرم

كلماتى لن تهزم

كلماتى لن تصدأ

كلماتى فى المرفأ

تنتظـر الإبـحار

يا قلـق الأسـفار

هبنـى قـيثاره

هـبنى نـواره

فأنا أنتظر المد لأرحل

هو إذن راحل دائما.. وهو يرى فى الرحيل الدائم معرفة أكثـر.. وبعـداً أكثر عن الحصار والموت.. وقربا أكثر من أحلامه وطموحاتـه.. حتـى لـو كان القلق هو الهاجس الدائم فى أسفاره.

والبياتي وجد فى الشعر نفسه خلاصه.. وفى الكلمات دربه الذى لا ينتهى إلا بموته.

أيها الحرف الذى علمنى حب الحياة

أيها الحرف الإله

آه.. لا تطفئ مصابيحك.. آه

كل ما أكتبه محض صلاة

لك.. للعالم..

ما أكتبه محض صلاة

وسلاح فى يدى ضد السلاطين

وأحقاد الغزاة

الحرف هنا هو الذى يمنحه الحياة والاطمئنان.. إنه صلاة.. والصلاة تريح القلب والجسد معا.. والحرف أيضا له وجه آخر فهو سلاح لا يفل فى وجه السلاطين والطغاة والغزاة.

ولأن الحرف متصل بكل ما يكتب.. فهو يرفض دور (الصحف الصفراء) التى تزيف كل شئ:

الصحف الصفراء

توزع الألقاب

تلثم أيدى القاتلين

تمسح الأعتاب

تمنح أشباه الرجال العور والأذناب

صكوكَ غفران بلا حساب

ويتنبأ البياتي لمثل هؤلاء المنافقين المزيفين بمصير محتوم..

ففى غد

سيسدل الستار

ويسقط الممثلون فى الوحول

تحت سقف المسرح المنهار

ويسقط الجميع.. ويسقط هو أيضاً عام 1999.. لكن سقوطه كان واقفا كالأشجار فى شموخ وعزة وصمود.